الأستاذة الدكتورة حياة قارة
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة محمد الخامس - الرباط

بسم الله الرحمان الرحيم

التراث الأندلسي
وتشكيل الهوية الثقافية المحلية

أود في البداية أن أتوجه بالشكر العميق إلى جامعة عبد الملك السعدي بتطوان ، ممثة في فضيلة السيد عميد كلية الأداب والعلوم الإنسانية بالجامعة على تيسير هذا اللقاء العلمي، وممثلة بشكل خاص في النخبة المثقفة التي تزدهي بها وتزدهر معها شعبة اللغة العربية وآدابها، وفي مقدمتهم الفاضل الأستاذ الدكتور جعفربن الحاج السلمي، كما أثني بالشكر إلى مؤسسة الفقيه العالم محمد داود للتاريخ والثقافة بتطوان ، ممثلة في محافظة المكتبة ابنته الفاضلة الأستاذة الدكتورة حسناء محمد داود، والفاضل الأستاذ الدكتور إسماعيل شارية كاتب عام المؤسسة، على التكريم الذي شرفتني به هذه المؤسسات العلمية الشامخة بمدينة تطوان.

مقدمة

سنتحدث هنا عن الحضارة الإسلامية في الأندلس التي امتدت إلى ثمانية قرون سياسيا وجغرافيا وثقافيا، ومازالت حاضرة حتى يومنا هذا، داخل الأندلس وخارجه إبداعا وإنتاجا، حيث تشكل الثقافة مفتاحا لفهم هذه الحضارة.

من هذه الزاوية، سأقتصر في هذه المحاضرة على الهوية الثقافية المحلية بالأندلس ، لأنها المفتاح الذي

سيساعدنا على استيعاب الموروث الثقافي والحضاري الذي حملته معها هذه الوفود المهاجرة والمهجرة التي أجبرت على الهجرة، وعلى الانسلاخ من تاريخها العريق الممتد إلى قرون عديدة من المجد الحضاري والثقافي والاجتماعي ، والاندماج داخل مجتمع جديد هو المغرب.

ولتوضيح مجال مناقشة الموضوع، ارتأينا التالي:

1 – سنركز على قضية الوعي بالثقافة الأندلسية المحلية، والشروط التاريخية التي أسهمت في بناء هذا الوعي، ثم امتداده مع الجيل الجديد من المستعربين الإسبان الذي التقط من الجذور الأندلسية هذا الانتماء المحلي الخاص، انبثقت منه فكرة مراجعة الهوية التاريخية الإسبانية ذات الجذور الإسلامية، ولعل البداية كانت مع المستعربين الإسبانيين باسكوال دي جايانجوس(1809 – 1897م) وخوسيه أنطونيو كونده (1766 – 1820م)، حيث تتلمذ عليهما الكثير من العلماء الإسبان، وشيدا بذلك أول مدرسة في الإستعراب بإسبانيا، تلتها مدرسة فرانشسكو كوديرا ، وامتد الاهتمام بالتراث الأندلسي مع الأجيال اللاحقة ، مع خوليان ريبيرا ثم لاحقا أسين بلاثيوس، وامتدادا مع إميليو غارسيا غومث ، وفي وقتنا الحاضر، توسع حضور التراث الأندلسي في الدراسات المعاصرة ، ونستحضر هنا على سبيل المثال لا الحصر ماريا خسوس فيجيرا، وماريبل فييرو، ومرثيديس غارثيا أرينال، مانويلا مارين ،وأميريكو كاسترو، كلوديو سانتيش ألبرنث ، خوان غويتيسولو، وغيرهم كثير يتجاوز الحصر.

2 – ولعل انتشار الدين الإسلامي في الأندلس منذ القرن الثاني الهجري، والتعامل باللغة العربية في هذا الوسط الجغرافي الموحد، ثم المصالح السياسية – الاقتصادية والاجتماعية المشتركة، بين مختلف المجموعات العرقية والدينية في شبه الجزيرة الإيبيرية، كونت وحدات مترابطة ومتشابكة، أدت إلى نشوء نوع من الشعور والوعي بخصوصية الهوية الثقافية العربية في الأندلس.

3 –ثم إن مسألة الوعي بالثقافة المحلية نابع ، فيما نرى، من الشعور بالاختلاف عن المشرق العربي، ولفهم حيثيات هذا الاختلاف، سننطلق من التاريخ الذي هو سجل الحضارة الإنسانية، والخلفية التي يمكن تقييمها للمساعدة في بناء تصورللحضارة الإسلامية في الأندلس، وسنستعين هنا بالمصادر التاريخية، وأخص بالذكر منها كتب التراجم والفهارس ، وما تفرع عنهما من تكملات وصلات وذيول، لأنها تساعد على استيعاب الموروث العلمي – الأدبي السائد في المشرق، ثم إعادة صياغته وتأقلمه، مع ظروف التطور الاجتماعي – السياسي الذي عرفته الأندلس في ظل الدولة المروانية وعاصمتها قرطبة، وستتزامن

الهوية الثقافية الأندلسية في هذه المرحلة، بتزامن قوة وعظمة الدولة الأموية في عصر الخليفة عبد الرحمان الثالث الناصر لدين الله (300 – 350 هـ) الذي أعلن إنهاء التبعية الإسمية لخلفاء بني العباس في بغداد.

ولم يلبث هذا الشعور بالقومية الأندلسية أن اتخذ طابع التخصص في عصر ملوك الطوائف، فأصبحت كل منطقة تشهد لونا معينا من ألوان المعرفة، تختلف وتتنوع مجالاتها، لكنها تتوحد في مركزية الحفاظ على الطابع المحلي الأندلسي.

ومع قدوم المرابطين ثم الموحدين إلى الأندلس، سنلاحظ اكتساب الثقافة المحلية بعدا آخر يتمثل في الازدهار الاقتصادي والتوسع الجغرافي، بل سيصبح المشروع الاقتصادي هو الوجه الآخر للمشروع السياسي، بينما المشروع الثقافي سيتجه نحو ارتياد مساحات مختلفة ومتنوعة، حيث ستمثل الفلسفة في هذين العصرين مع ابن باجة وابن طفيل وابن رشد حقلا معرفيا شجع عليه الأمراء والملوك،إنه عصر تفاعل الثقافة مع السياسة ، بتعبير العالم جمال الدين العلوي رحمة الله عليه بل ألهم" المشروع السياسي للدولة الموحدية العديد من المثقفين، من بينهم الفيلسوف ابن رشد" ، يقول في هذا السياق :" لعل الصدف التاريخية الجميلة أن يكون على رأس الدولة أمير متنور فيلسوف هو يوسف بن عبدالمومن، وأن يكون على رأس الفلسفة رجل سياسة متنور هو أبوبكر بن طفيل" ، المتن الرشدي ص 219

وإذا كانت الرقعة الجغرافية للأندلس شهدت انحسارا وتراجعا، مع تساقط المدن على أيدي المسيحيين في القرون المتوالية حتى سقوط غرناطة في سنة 1492م، فإن شعلة الثقافة الأندلسية لم تنطفئ، ولم تنحسر بانحسار المجال الجغرافي الذي أصبح محدودا في بعض المدن والقرى، تتقدمهم غرناطة كعاصمة لما تبقى من الأندلس الإسلامية، وسنلاحظ أن شعر البلاط النصري في هذه المرحلة سيتسم بخصوصيته الغرناطية التي تأنق في إبداعها أبو الطيب الرندي، وامتدت مع ابن الجياب وابن الخطيب وابن زمرك وابن فركون.

1 ـ المصادر التاريخية وبناء الوعي الذاتي الثقافي – المحلي :

بناء الثقافة العربية الإسلامية في الأندلس، نشأ مع الرعيل الأول من الفقهاء الأندلسيين الذين توجهوا إلى تدوين التاريخ المحلي، ويمكن القول إنه ابتدأ مع الفقيه عبد الملك ابن حبيب (ت 238 هـ)،

إذ يعد أحد الرواد في التأليف في مجال التراجم المحلية، مما ساعد على توسيع دائرة الثقافة في الأندلس، وتعتبر مؤلفاته شاهدا على العلاقات الثقافية الوثيقة بين الأندلس والشرق الإسلامي.

لذلك يمكن القول إن فن التراجم في الأندلس قام على أيدي الفقهاء، وتركز الاهتمام على الفقهاء والمحدثين، حتى حدود النصف الثاني من القرن الثالث الهجري ، حيث خصص لهم عدد كبير من المعاجم والتراجم، وتعد هذه الفترة، المرحلة الأولى لتأسيس ما يعرف ب " الأندلسية "، ووضع بداية لها، ولهذا اعتمد العلماء في تراجمهم على التعريف برواد الحديث النبوي الشريف، والتأريخ لرجاله، وتدوين المذهب المالكي ،اقتداء بعلماء المشرق الذين صنفوا في هذا المجال المعرفي.

في هذا السياق، نقول إن الرحلة إلى المشرق تمثل النواة الأولى لبناء ثقافة عربية إسلامية في هذا الصقع الغربي.

وتمثل مكة المكرمة المركز الرئيس الذي كان يؤمه معظم علماء الأندلس، للسماع والتفقه والرواية، ثم يتوجهون بعدها فرادى وجماعات،إلى العواصم الثقافية الأخرى ، من بينها : بغداد والبصرة، والكوفة ومصر ،وبلاد الشام ، وبلاد فارس ، وآسيا الوسطى.

وبفضل الرحلات إلى المشرق للحج وطلب العلم ، قام بها جلة من فقهاء قرطبة، وبتشجيع من الأميرهشام بن عبد الرحمان وولده الأميرالحكم بن هشام (180 – 206 هـ)، انتقل الرأي الفقهي من الفقه الأوزاعي إلى الفقه المالكي، يقول ابن حيان في هذا السياق : ((وفي أيام الحكم، انتقلت الفتاوى بالأندلس من رأي الأوزاعي وأهل الشام بالكلية، وعليه كانوا منذ أول حلول الإسلام بها، فحولت إلى رأي مالك وأهل

المدينة، وانتشر رأي مالك بقرطبة، وعم بلاد الأندلس)) (1) ، وكان زياد بن عبد الرحمان بن شبطون أول من أدخل إلى الأندلس موطأ مالك، مكملا مثبتا بالسماع عنه(2).

من زاوية أخرى،سنلاحظ من خلال بعض النماذج التي سنستعرضها، تأثير المدرسة العراقية على المثقفين الأندلسيين، ابتداء مع قدوم زرياب إلى الأندلس في عهد الأمير عبد الرحمان الثاني (206 – 238هـ) ، يقول ابن حيان في هذا السياق : ((ووجه (الأمير عبد الرحمان الثاني) عباس بن ناصح الجزيري إلى العراق، في التماس الكتب القديمة وانتساخها، وجهزه بالأموال، فأتاه بكتاب الزيج والقانون والسند هند والموسيقا ، وسائر كتب الفلسفة والحكمة، وكتب الطب وغيرها من كتب الأوائل، فكان عبد

الرحمان أول من أدخلها إلى الأندلس، وعرف أهلها بها، ونظر هو فيها وفي غيرها من الكتب الإسلامية)) (3)

وقد شمل هذا التأثيرمجمل الدراسات اللغوية والأدبية والفلسفية والعلمية ، وبعض المذاهب الفقهية، ففي معرض الترجمة بأيوب بن سليمان بن إليان القوطي (ت 326 هـ)، يقول ابن الفرضي :((أدخل كثيرا من كتب العراقيين)) (4)، أما العالم القرطبي عبد الله بن قاسم بن هلال (ت 272 هـ) ، فقد ((أدخل الأندلس كل كتب أبي سليمان داوود ابن سليمان القياسي، لقيه بالعراق، وكان علم داوود الأغلب عليه)) (5)

وسئل الفقيه عبد السلام بن غياث اللخمي الإشبيلي (ت 371 هـ) ، وكان يتردد كثيرا على المشرق، عن عدم رجوعه إلى الأندلس، فقال :((لا أدخل الأندلس حتى أدخل بغداد، وأكتب فيها الحديث والآداب والأشعار...وأتقصى كتاب أسمعتي، ثم أصدر إلى الأندلس))(6).

وتشهد كتب التراجم والفهارس والطبقات، حب الأندلسيين للتجوال في المعمور، طلبا للعلم، والعناية به : مناولة وإجازة، ورواية وسماعا، وما إليه ، لذلك نجد عبارات كثيرة تتردد في هذه المصادر التاريخية، أثناء الترجمة بعلماء الأندلس، مثل : "تجول في طلب العلم وسماعه"، و"عني بسماع العلم ولقاء شيوخه "،

---

1 – المقتبس لابن حيان القرطبي، س 2 / 199، تحقيق د. محمود علي مكي، مركزالملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ط1 ، الرياض ، 1414 هـ / 2003 م .

2 – المصدر نفسه س2 / 200

3– المقتبس س2 / 278

4– تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس1 / 103، نشرة عزت العطار الحسيني، القاهرة ، 1954

5 – المصدر نفسه 1 / 257

6– المصدر نفسه 1 / 330 –331

"رحل وطوف البلاد ودخل خراسان"، "رحل إلى المشرق حاجا وطالبا للعلم"، "جال في الأندلس والمشرق طالبا للعلم وراغبا في لقاء حملته" ، "وكان ممن أطال التجوال في طلب العلم وأبعد الرحلة في التماسه".

كما تشير كتب التراجم إلى المجالس العلمية التي يحضرها هؤلاء العلماء، والمؤلفات التي حملوها معهم إلى الأندلس، ففي معرض الترجمة بالفقيه أحمد بن محمد بن سعدى (ت قبل سنة 400 هـ)، يحكي لنا أحمد ابن عميرة الضبي، عن مجالس أهل الكلام التي كان يحضرها هذا الفقيه في بغداد، وفصل الحديث عن مستوى الحرية الفكرية التي كان يتحلى بها العلماء أثناء مداولة المناظرة بين الفرق الكلامية المتعددة: مسلمون من أهل السنة ، وغيرهم من الطوائف الأخرى، واليهود والنصارى (1)

وفي نفس السياق، نذكر فرج ابن سلام أبو بكر، رحل إلى المشرق، ما بين سنة 238 –255 هـ، ودخل العراق، وخلال وجوده هناك، استمع إلى محاضرات الجاحظ، وأخذ منه كتاب البيان والتبيين، وغير ذلك من مكتوباته،وأدخلها الأندلس رواية عنه، وقام بدراستها مع تلامذته (2) ، ويعد ابن سلام خبيرا بتراجم العلماء الأندلسيين، استفاد من أخباره معاصره القرطبي سكن بن إبراهيم، وخاصة مؤلفه الذي دون فيه أخبار كتاب الأندلس، قال ابن الأبار في هذا الموضوع : ((له تأليف في طبقات الكتاب بالأندلس، روى فيه عن فرج ابن سلام الأندلسي صاحب الجاحظ)) (3)

1– انظر تفصيل الحكاية في بغية الملتمس،ص 156،الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط 2 ، القاهرة . 2008

2– تاريخ ابن الفرضي 1 / 393

3– التكملة لكتاب الصلة، 4/ 102 حققه وعلق عليه د. بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، تونس، ط1 ، 2011

وحكي عن أبي بكر بن العربي (ت 543 هـ)، أنه قال ((لم أرحل من الأندلس حتى أحكمت كتاب سيبويه، وكنت أحفظ بالعراق في كل يوم سبع عشرة ورقة...)) (1)، وعاد ابن العربي من رحلته المشرقية في سنة 493 هـ((وقدم بلده اشبيلية بعلم كثير لم يدخله أحد من قبله ممن كانت له رحلة إلى المشرق)) (2)

ويضاف إلى هؤلاء العلماء الذين عرفت لهم رحلة إلى المشرق، علماء أندلسيون لم تشهد لهم رحلة خارج الأندلس، وإنما اكتفوا بالترحال والتجوال داخل ربوعها، من بينهم أبو عبدالملك أحمد بن محمد بن عبد البر (ت 338 هـ)، وضع مجموعة من التراجم لفقهاء قرطبة وقضاتها، اعتمد عليه ابن الفرضي في بناء تاريخه (3).

وكذلك أبو القاسم مطرف بن عيسى الغساني الإلبيري (ت 357 هـ)، أسهم مساهمة فعالة في دراسة الحياة الثقافية لأبناء منطقة إلبيرة من الفقهاء والشعراء، فألف كتابا في(فقهاء إلبيرة)) ،وآخر في (شعراء إلبيرة) وآخر في (أنساب العرب النازلين بإلبيرة وأخبارهم)(4)

من جهة أخرى، تشير كتب التراجم إلى تشجيع الخلفاء الذين تعاقبوا على الأندلس للعلماء، فمثلا الخليفة الأموي الحكم الثاني الملقب بالمستنصر بالله (350 –366هـ) وكان (محبا للعلم والعلماء، وجمع العلماء من كل قطر)(5)، اشتهرأيضا بدعم وتشجيع البحث في مجال الأنساب،إذ يشير ابن حزم في

1– بغية الملتمس ص 93

2 – الصلة لابن بشكوال 2 / 558 نشرة عزت العطار الحسيني،مكتبة الخانجي القاهرة ، ط1،1955

3 – تاريخ ابن الفرضي 1 / 50 –51

4– تاريخ ابن الفرضي 2 / 136

5–الإحاطة في أخبار غرناطة ، تأليف لسان الدين بن الخطيب ، نشرة محمد عبد الله عنان، القاهرة، ط2 ، 1973 . الإحاطة 1 / 478

رسالته إلى مؤلف عرف فقط، دون أن نعلم شيئا عن مؤلفه، وهو (كتاب الطوالع في أنساب أهل الأندلس)، ومن المحتمل أنه ألف بتوصية من هذا الخليفة، إذ تشير المصادر التاريخية إلى اهتمامه بأنساب أهل الأندلس، وارتباطا بهذا الموضوع، في معرض الترجمة بأبي القاسم خالد ابن سعد(ت 352 هـ)، يشير ابن الفرضي إلى أنه ألف للمستنصر بالله كتابا " في رجال الأندلس"، وكان الخليفة يقول :(إذا فاخرنا أهل الشرق بيحيى بن معين، فاخرناهم بخالد بن سعد)(1).

ومن بين توصياته في مجال التأليف ، مؤلف في أخبار الأندلس(2)، لإسحاق بن سلمة القيني، وكذلك طبقات النحويين واللغويين لأبي بكر الزبيدي الإشبيلي (ت379 هـ) ، ضمنه تراجم اللغويين والنحويين البصريين، ونحويي الكوفة ومصر والأندلس حتى وصل إلى زمنه، وتشير المعلومات التي جمعها الزبيدي إلى الدور الريادي الذي لعبه الشرق في بناءالثقافة العلمية بالأندلس.

وبفضل تشجيع المستنصر بالله للعلم والعلماء، يبدو أن القرن الرابع الهجري، شهد طفرة علمية واضحة في ترسيخ الهوية الأندلسية، وتعود بالأساس إلى استثمار التراكمات المعرفية التي تعتبر ذخيرة علمية واسعة، انبنت على الرحلات الثقافية إلى المشرق، وبخاصة في القرون الثلاثة الأولى في عهد الدولة

المروانية، نهضت على إثرها وبالموازاة معها ثقافة محلية تعنى بعلماء الأندلس، وأصبحت نموذجا للتطور المركزي المحلي للثقافة العربية الإسلامية.

2– تأصيل الهوية الأندلسية من خلال رسالة ابن حزم وذخيرة ابن بسام

إن الشعور والوعي بضرورة الاستقلالية عن الشرق، وترسيخ الهوية الأندلسية، حصل، فيما نرى، نتيجة تداخل عاملين اثنين هما :

1– تاريخ ابن الفرضي 1/ 155

2 – المصدر نفسه 89/1

1 – الرحلة إلى الشرق، لتحصيل العلوم الشرعية والعلمية والأدبية،وقد وضحنا ذلك في فقرة سابقة، يتبين من خلالها أن هذه النهضة العلمية ما كانت لتزدهر وتمتد طوال القرون الثمانية التي حكم فيها المسلمون الأندلس، لولا الأسس الرصينة التي دعمها الأمويون منذ بداية الفتح الإسلامي، وتتلخص في ترسيخ وتوطيد الدين الإسلامي، وانتشاره في أواسط القرن الثاني الهجري،ثم التعامل باللغة العربية كلغة رسمية موحدة للأندلس: سياسيا وثقافيا، ثم توفير المكتبات العامة والخاصة، بحيث تشير المصادر التاريخية إلى أن مكتبة الخلافة المروانية في قرطبة وحدها، كانت تضم ما يقارب أربعمائة ألف كتاب.

2 – طبيعة المجتمع الأندلسي الذي كان يحكمه التنوع الثقافي والديني، والعرقي واللغوي، وسم الهوية الأندلسية بميسم التعددية الدينية، والتعايش الثقافي، بحيث أصبح نموذجا لحضارة صنعت " أندلس " ممتدة حتى عصرنا هذا، في أماكن مختلفة في : إفريقيا وأمريكا اللاتينية.

اعتمادا على ما تقدم، نقول إن كلا من ابن حزم القرطبي وابن بسام الشنتريني، سيسهمان في إخصاب الإبداع الأدبي والفكري الأندلسي،والتحول من الشعور والوعي بالهوية الأندلسية إلى تأصيل الهوية الثقافية الأندلسية، إذ كشف كل منهما عن السبب الرئيس للتأليف والتعريف بالثقافة الأندلسية في مختلف تجلياتها.

ولعل أهم أطروحة ثقافية ركز عليها المؤلفان، هي مسألة العلاقة بين الشرق والأندلس،من حيث التأثير المشرقي على الأندلسيين، وهي قضية ما زالت حية حتى يومنا هذا، وتتحرك باتجاهات مختلفة.

وتعد رسالة ابن حزم (ت 456 هـ) في فضل الأندلس، فيما يقول محمود علي مكي، (من أروع نماذج العصبية الفكرية للقومية الأندلسية)(1)، وهو الذي أنشد بيتا ضمنه عصارة هذه العصبية القومية : المتقارب(2)

وياجوهـــــر الصين ســـــحقا فقد غنيـــــــت بياقوتة الأندلـــــــــس

---

1 – المقتبس لابن حيان القرطبي، ص90، تحقيق د. محمود علي مكي،وزارة الأوقاف، لجنة إحياء التراث الإسلامي ، القاهرة 1995

2– المصدر نفسه

يوضح ابن حزم في المقدمة السبب الرئيس للتأليف، ويتعلق بمشكلة الهوية الأندلسية التي طرحها حاكم منطقة البونت أبو عبدالله محمد ابن قاسم (وهو أحد الأمراء في مرحلة ملوك الطوائف)، ورغبته في تقديم مؤلف حول الثقافة الأندلسية، ينصف فيها أهل الأندلس من دعاوى ابن الربيب القيرواني الذي اتهم أهل الأندلس بالتقصير في تخليد مآثرهم وأخبار علمائهم وسير ملوكهم.

استعرض ابن حزم في رسالته مجموعة واسعة من التآليف المتصلة بعدة شعب ثقافية متنوعة : العلوم الشرعية واللغوية،والشعر، والتاريخ العام، الأنساب، المسالك وأحوال المدن والعواصم، والسير والرجال والطبقات، والطب والفلسفة.

ونلاحظ أنه سيركز على مدينة قرطبة، مدينة الأنوار في العصر الوسيط، ومفخرة الدولة المروانية، والعاصمة العلمية في الغرب الإسلامي، يقول :(وأما في قسم الأقاليم، فإن قرطبة مسقط رؤوسنا، ومعق تمائمنا، مع سر من رأى في إقليم واحد، فلنا من الفهم والذكاء ما اقتضاه إقليمنا ....فكان أهلها من التمكن في علوم القراءات والروايات وحفظ كثير من الفقه، والبصر بالنحو والشعر واللغة والخبر والطب والحساب والنجوم بمكان رحب الفناء، واسع العطن، متنائي الأقطار، فسيح المجال)(1)

قرطبة هنا تتلخص فيها كل الحضارة الأندلسية، وتعكس في الآن نفسه الهوية الثقافية المحلية،والملاحظ أن إشعاع قرطبة الثقافي والحضاري، لم يخب أو يأفل بأفول الدولة الإسلامية في الأندلس، بل ظلت قرطبة متوهجة و حاضرة ومتألقة في مخيال الأدباء شرقا وغربا حتى يومنا هذا.

وإذا تصفحنا الرسالة، سنجد أنه استهلها بالمؤلفات الفقهية المالكية، ومثنيا بتفسير القرآن،

ويشير هنا إلى تفسير أبي عبدالرحمان بقي بن مخلد الذي يجعله في طليعة التفسيرات للقرآن ، مقارنة مع ما جاء في الشرق، يقول :(فهو الكتاب الذي أقطع قطعا، لا أستثني فيه أنه لم يؤلف في الإسلام تفسير مثله،ولا تفسير محمد بن جرير الطبري)(2)، ثم يسترسل في ذكر المؤلفات في الحديث وشروحه،

1- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب،3 / 163، تأليف أحمد بن محمد المقري التلمساني ،تحقيق. إحسان عباس، دار صادر ، بيروت 1988 .

2-- المصدر نفسه 3 / 168

ثم اللغة والنحو والشعر، وقال في هذا الإطار(لو لم يكن لنا من فحول الشعراء إلا أحمد بن دراج القسطلي، لما تأخرنا عن شأو بشاربن برد وحبيب والمتنبي)(1).

وأثناء حديثه عن التاريخ السياسي للدولة المروانية، نجده يركز على مؤلفات أحمد بن محمد بن موسى الرازي، في أخبار ملوك هذه الدولة وغزواتهم ونكباتهم، وكذلك مؤلفاته في مآثر الأندلس، مسالكها ومراسيها، ثم تحدث عن التاريخ الكبير في أخبار الأندلس لأبي مروان ابن حيان القرطبي،وهو في (نحو عشرة أسفار من أجل كتاب ألف في هذا المعنى)(2) ، ثم فصل الحديث في المؤلفات المخصصة لأخبار الفقهاء والقضاة، والأطباء والشعراء، ثم المؤلفات العلمية في الطب والفلسفة والعدد والهندسة، وختم الرسالة بالمقارنة بين العلماء في المشرق والأندلس، ويتبين هنا أنه على الرغم من إعجابه بالثقافة العربية المشرقية التي نستشفها من قوله ((وهذه بغدادحاضرة الدنيا ومعدن كل فضيلة، والمحلة التي سبق أهلها إلى حمل ألوية المعارف ، والتدقيق في تصريف العلوم ، ورقة الأخلاق والنباهة والذكاء ونفاذ الخواطر))(3) ، فإنه انتقدها حين قال ((وما أعلم في أخبار بغداد تأليفا غير كتاب أحمد بن أبي طاهر، وأما سائر التواريخ التي ألفها أهلها، فلم يخصوا بلدتهم بها دون سائر البلاد))(4) ، ((وبلدنا هذا على بعده من ينبوع العلم، ونأيه عن محلة العلماء، فقد ذكرنا من تآليف أهله ما إن طلب مثلها بفارس والأهواز، وديار مضر وديار ربيعة واليمن والشام، أعوز وجود ذلك، على قرب المسافة في هذه البلاد من العراق التي هي دار هجرة الفهم وذويه، ومراد المعارف وأربابها))(5)

يبدو أن تأصيل الهوية الثقافية الأندلسية، كانت من أبرز ملامح القرن الخامس الهجري، فإلى جانب الفقيه ابن حزم، نقف عند شخصية أخرى ،تتمثل في المؤرخ الأديب ابن بسام الشنتريني(ت542 هـ)

1- المصدر نفسه 3 / 178

2- نفح الطيب 3 /174

3 – نفح الطيب 3 / 165

4 – المصدر نفسه

5 – المصدر نفسه 3 / 177

انبرى للدفاع عن الهوية الثقافية الأندلسية التي نستشفها منذ البداية من خلال عنوان موسوعته الأدبية (الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة)،ولعل العنوان دال على مقصدية المؤلف التي تتلخص في الدفاع عن محاسن أهل الجزيرة وذخائرها الثقافية والأدبية.

كما نستشفها من خلال المقدمة التي قدم بها موسوعته ((وما زال في أفقنا هذا الأندلسي القصي إلى وقتنا هذا من فرسان الفنين، وأئمة النوعين ، قوم هم ما هم طيب مكاسر، وصفاء جواهر، وعذوبة موارد ومصادر، لعبوا بأطراف الكلام المشقق...فصبوا على قوالب النجوم، غرائب المنثور والمنظوم... نثر لو رآه البديع لنسي اسمه، أو اجتلاه ابن هلال لولاه حكمه ، ونظم لو سمعه كثير ما نسب ولا مدح، أو تتبعه جرول ما عوى ولا نبح)) (1) نلاحظ هنا التركيز على خصوبة الإبداع الأدبي الأندلسي الذي لم ينقطع نشاطه وحيويته، وغزارة إنتاجه، على الرغم من الظروف السياسية القاسية، والمعارك المتوالية الضارية بين المسلمين والمسيحيين التي امتحن بها الأندلس، طوال القرون الخمسة حتى عصر المؤلف.

إن الاهتمام بالتراث الأندلسي والدفاع عن هويته المحلية، دفعت ابن بسام إلى رفض تقليد

الأندلسيين للمشارقة، يقول في هذا السياق : ((إلا أن أهل هذا الأفق، أبوا إلا متابعة أهل الشرق ، يرجعون إلى أخبارهم المعتادة، رجوع الحديث إلى قتادة، حتى لو نعق بتلك الآفاق غراب، أو طن بأقصى الشام والعراق ذباب، لجثوا على هذا صنما، وتلوا ذلك كتابا محكما))(2)

يبدو من خلال هذه الاقتباسات التي اقتبسناها من ذخيرة ابن بسام ورسالة ابن حزم، اقتناع كل من المؤلفين بتفوق الثقافة الأندلسية ، لذلك نجد ابن بسام سيخصص لهذه الثقافة ثلاثة أقسام من موسوعته، وهي :

1- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة تأليف أبي الحسن علي بن بسام الشنتريني،تحقيق د. إحسان عباس،دار الثقافة ، بيروت، لبنان1979 ، ق1/م1/ 11 -12

2- الذخيرة 1 / 1 / 12

- لأهل حضرة قرطبة وما يصاقبها من بلاد موسطة الأندلس

- لأهل الجانب الغربي من الأندلس، وذكر حضرة إشبيلية، وما اتصل بها من بلاد ساحل البحر المحيط الرومي

- أهل الجانب الشرقي من الأندلس والثغر الأعلى.

تغطي تغطية واسعة الحركة الأدبية في القرن الخامس الهجري ، بينما ابن حزم جنح في رسالته إلى الاختصار، وركزعلى توضيح محلية الثقافة الأندلسية، مستعينا بمفهوم التخصص في المجالات المعرفية المتنوعة التي شهدها القرن الخامس الهجري، وعمد إلى عرض أهم المصادر الأندلسية في عصره.

3 – امتداد الدفاع عن الهوية الأندلسية في العصور اللاحقة :

تكشف المصادر الأدبية عن امتداد تأصيل الهوية الثقافية الأندلسية في الأجيال اللاحقة، فمثلا في القرن السادس الهجري ، نجد الفتح بن خاقان (ت569 هـ) يعقد في كتابه(مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس)، مقارنات عديدة بين الأندلسيين والمشارقة، ففي معرض حديثه عن الأديب أبي القاسم محمد بن هانئ الأندلسي، يقول : ((...زهت به الأندلس وتاهت، وحاسنت ببدائعه الأشمس وباهت ، فحسد المغرب فيه المشرق، وغص به من بالعراق وشرق...))(1).

وفي معرض حديثه عن الفقيه أبي محمد بن حزم ((فقيه مستنبط ، ونبيه بقياسه مرتبط... ما تمنت به الأندلس أن تكون كالعراق ، ولا حنت معه إلى تلك الآفاق ، أقام بوطنه ، وما برح عن عطنه ...ولكنه أربى على من من ذلك غذي ، وأزرى على من هنالك قد نعل وحذي ..))(2).

إن شعور الافتخار بالمثقفين الأندلسيين، يمتد مع معاصره أبي عمروعثمان بن الإمام الإستجي

---

1 – مطمح الأنفس ومسرح التأنس ،،ص 322 ،دراسة وتحقيق محمد علي شوابكة، دار عمار ،مؤسسة الرسالة، ط 1 ، بيروت 1983

2 – المصدر نفسه ص 279

(ت560 هـ) الذي سيخلد في كتابه سمط الجمان وسقط الأذهان(1) مجموعة من العلماء والأدباء الذين زهت بهم الأندلس في عصره، ففي معرض الترجمة بأبي الطاهر محمد بن يوسف الإشتركوي صاحب المقامات اللزومية، يقارن بين لزومياته، ومقامات كل من بديع الزمان الهمذاني والحريري :(...وأما لزومياته الموضوعة، ومقاماته المجموعة، فقد انفردت بالغريب والمعنى البديع ، وغبرت في وجه الحريري والبديع)(2)

وفي إطار المقارنة بين المشرق والمغرب،يتحدث عن الأديب أبي بكر بن الحاج اللورقي، ويقول :

(روض الأدب الزاهر...إن جد فمن أسامة، أو هزل فمن أبو دلامة ، او مجن فمن أبو نواس)(3)

وفي إطار الافتخار بعلماء الأندلس، يخصص للفيلسوف الطبيب أبي بكر بن الصائغ المعروف بابن باجة ترجمة يمجد فيها نبوغه ووعبقريته في مجال العلوم، يقول :(سرالجزيرة إذا تهندست ، وجهبذها إذا تنطست...لولاه ما سفرت عن شريق، ولا اهتدت إلى الرياضيات سمت طريق، ولا ضربت بعرق في البرهانيات عريق)(4)

إن التشبث بالهوية الثقافية امتد مع الأجيال اللاحقة، مما جعل التراث الأندلسي، بمختلف مجالاته ، يظل حيا ومنتعشا حتى يومنا هذا.

.

1– لم يصل إلينا هذا الكتاب كاملا، وقد قمنا ببنائه من مصادر متعددة، وصدر تحت عنوان : المقتضب من كتاب سمط الجمان وسقط الأذهان، تحقيق دة. حياة قارة، دار النجاح الجديدة ، الدار البيضاء – المغرب ط1 ، 2002

2– المقتضب من كتاب سمط الجمان ص 53

3 – المصدر نفسه ص 43

4– المصدر نفسه ص 5

وامتدادا لجيل القرن السادس الهجري الذي وقفنا عند بعض نماذجه، نجد العلماء والأدباءفي العصر اللاحق يحافظون على تأصيل الهوية الأندلسية، فهذا ابن الأبار البلنسي (ت658هـ) ، ألف لهذا الغرض موسوعته في التراجم الأندلسية " التكملة لكتاب الصلة"، ووسم صلة ابن بشكوال بقوله : (...وبعد، فهذا كتاب التكملة لكتاب الصلة...الذي ألف أبو القاسم ابن بشكوال، فوصل المنفصل، وطبق في معارضة أبي الوليد ابن الفرضي المفصل، وجاء بحسنة أثمرت له الحسنى، وجاد على عفاة العلم بصلة ما أسنى، لا جرم أنه أعاد بها من كان فانيا، فأعار الأندلس وأهلها عمرا ثانيا ...)(1)

ولا تغيب الإشارة إلى الظروف السياسية القاسية في مقدمة التكملة، والأسلوب الدامي الذي انتهجه المسيحيون بهدف تدمير وتحطيم الهوية الثقافية الإسلامية لدى الأندلسيين، يقول في هذا السياق :(وكان انبعاثي لهذا التقييد الملتمس من الله فيه حسن العون والتأييد، أول شهر الله المحرم مفتتح سنة إحدى

وثلاثين وست مائة، امتعاضا للجزيرة وارتماضا من كوائنها المبيرة، ليعلم أنها ما أفلت أهلتها ، وإن أعضلت علتها...ولا هوت نجومها ، وإن أقوت رسومها، وألوت بدولة عربها رومها)(2)

وتمتد هذه الروح الوطنية، والنزعة الأندلسية المحلية مع جيل لسان الدين ابن الخطيب في القرن الثامن الهجري ، حيث نجده يضمن موسوعته الأدبية (الإحاطة في أخبار غرناطة) تراجم أندلسية لعلماء من مختلف المنازع والمشارب، وجعل من غرناطة العاصمة الثقافية، والمركز الذي تتحرك في فلكه الثقافة الأندلسية، ويعلل ذلك بقوله : (...فلست ببدع ممن فتن بحب وطن، ولا بأول من شاقه منزل فألقى بالعطن، فحب الوطن معجون بطينة ساكنه، وطرفه مغرى بإتمام محاسنه)(3)

1- التكملة لكتاب الصلة 1 / 51

2- المصدر نفسه 1 / 52

3- الإحاطة 1 / 85

أفق القراءة

يبدو أن هذا البناء الشامخ للثقافة الإسلامية في الأندلس، استطاع الصمود طوال القرون المتعاقبة على خروج المسلمين من ديارهم، بعد سقوط غرناطة سنة 1492 م، نلاحظ ذلك من خلال الأبحاث والدراسات الأكاديمية العديدة التي تحتضنها الجامعات في معظم أرجاء المعمور، ويكفي إطلالة على هذا الكم الوفيرمن الأطاريح الجامعية، والمؤتمرات والندوات بلغات عديدة ومختلفة، لنلمس بشكل عميق حيوية هذا التاريخ العريق للتراث الأندلسي.

وعلى الرغم من الصراع الإديولوجي والسياسي الذي احتدم حول هذا التاريخ الإسلامي منذ القرن التاسع عشر، انبثق من مشكلة الهوية الإسبانية،والمفاهيم المختلفة حول هذه الهوية، إلا أنه ملأ الدنيا وشغل الناس، بالعبارة الشائعة عن المتنبي، مما يؤكد حيوية هذا التاريخ في ذاكرة الإسبان، وما استمرارية هذا الجدل الإديولوجي حوله حتى يومنا هذا، إلا تعبير عن خصوصية وخصوبة التراث الأندلسي.